

المقدمة

ما هو السلوك البشري الطبيعي؟ عندما نضطرب أو نندهش مما يفعله الآخرون فإنه كثيراً ما يظهر علينا ذلك من خلال حاجبٍ مقطَّب أو شهقة السرور. «ليس من الطبيعي أبداً أن تكون قادراً على فعل ذلك أو أن تكون راغباً في ذلك».

ونسلم أحياناً تعليقاً مثل «ليس أمراً طبيعياً أن تكون طبيعياً إلى هذا الحد». ولا يستطيع بعض الناس ببساطة أن يفوزوا في لعبة الحالة السوية. وحتى ولو كنا نعلم من الناحية الفكرية أن هناك طرقاً كثيرة كي يصبح فيها المرء طبيعياً فإننا مع ذلك نقارن أنفسنا بالأصدقاء والجيران والزملاء والمشهورين، ونستخدمهم كنقطة حراسة شخصيَّة، وكأننا نقول: «بالمقارنة مع ذلك الشخص فأنا طبيعي إلى حد كبير». ولكننا عندما نمنح أنفسنا بعض السكينة فإننا قد نجد أنفسنا في حالة عدم انسجام أو في حالة إحباط أو نجد أننا نغرق في مستنقع الفوضى وذلك لأننا لم نستطع أن نفهم شخصاً ما أو أنه قد أسيء فهمنا من قبل الآخرين. وتُقابَل صورتنا عن السلوك الطبيعي بمقاومة من الأناس الطبيعيين الآخرين. وتفرض مثل هذه اللحظات على كثير منا أن يتوقَّف قليلاً ويحاول أن يفهم ما الذي جرى حتى

سارت الأمور على غير ما يُرام. وقد نجد أنفسنا نتمتع بكلمات مثل «بدا الطلب معقولاً بالنسبة إليّ؛ ولكن لماذا نَظَرْتُ إليّ كما لو أنني كنتُ مجنوناً؟» أو بكلمات مثل «كنت أحاول أن أكون مفيداً ومتفهماً! فلماذا أشعر فجأة وكأنني قد ارتكبت خطيئة فادحة؟» أو بكلمات مثل «لقد حاولت جاداً أن أهيء تعريفاً وتقديماً كامليين. فلماذا استمروا يسألون أسئلة خارجة عن الموضوع، أسئلة تخرج عن نطاق ما طُلب مني أن أقوم به؟» والسؤال والحالة هذه وهو ما نظل نسأله إلى الأبد هو في جوهره «ما هو السلوك الذي يبدو طبيعياً ومقبولاً في هذا المجال؟ وما يزعجنا هو كيفية حدوث هذه الاختلافات في وجهات النظر ولماذا تحدث. وعندما تتكشف الحقيقة فإننا نودّ عندها أن نعرف ما إذا كانت إحدى وجهات النظر أصحّ من الأُخرى».

وما يُربكنا ويحيّرنا وما يزيد الأمور تعقيداً في الغالب هو كثرة الكتب في علم النفس الجماهيري التي تزعم أنها تقدّم مساعدة ذاتية لنا. وكثيراً ما تعتمد هذه الكتب على خبرات شخص واحد بمفرده. ولكنها كُتِبَتْ وبتوسّع كبير جداً بحيث تبدو لنا هذه الخبرات طبيعّة، وبالتالي فهي قابلة للتطبيق عليّ وعليك. وحتى الكتب التي تقدّم لنا مساعدة ذاتية ولا تحتوي على قصص أو نوادر، هذه الكتب قائمة في الغالب على بحث أُجري على «شريحة سريرية (اكلينيكية)»؛ هذا إن كان البحث

سليماً. وبكلمات أخرى، فإن الأشخاص الذين دُرِسوا والذين تقوم عليهم فرضيات الكتاب هم ممّن شارك في هذه الدراسة نظراً لأنهم كانوا يبحثون عن عون مهني لمشكلة ما نفسية أو عاطفية.

وبعد ذلك يؤلف عالم النفس أو الطبيب النفساني من ذوي النوايا الطيبة كتاباً حول العلاج الذي ساعد هؤلاء الناس؛ متجاهلاً الإشارة إلى أنّه إذا لم يكن القارئ يعاني نفس المشكلة بشكل يطلب فيه العون المهني فإنّه ليس من المحتمل أن يكون العلاج الموجود في الكتاب مناسباً تماماً. وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء المؤلفين كثيراً ما يضعون افتراضاتهم عن «البقية منا (من الناس)» على أساس عيّنة صغيرة من الناس ذوي المشاكل المُعترف بها. وإذا ما نالت بعض هذه الكتب رواجاً وانتشاراً فإنه سيبدو عندها وكأن الحالة السوية لا تنال حظوة لدى جمهور القراء.

إذاً فما هي صفة وما هو تعريف الجماهير العادية ذوي الوظائف العادية الذين يحاولون أقصى ما في وسعهم كي يستثمروا أنفسهم وعائلاتهم وحياتهم إلى أقصى مدى ممكن؟ أين هي بعض الاستجابات لمسائل الحياة اليومية مثل: لماذا نتجادل أنا وزوجي أو الأولاد وباستمرار حول هذا النوع من الأمور؟ لماذا لا أستطيع نقل أفكاري إلى رئيسي أو إلى بقية أفراد المجموعة المتطوعة التي أعمل فيها؟ وبصورة عامة، كيف

يمكنني أن أكون مستمعاً أفضل أو محاوراً أفضل؟ لماذا يكون المشروع مثيراً ومنشطاً جداً لي في حين أن حماس الآخرين قد نضب تجاهه؟

وأملنا أن تجد في هذا الكتاب بعض الإجابات، أو أن تجد في أقل الأحوال مخططاً واضحاً للطريق الذي يقودك إلى هذه الإجابات. وهدف محاولتنا هو تمييز ودراسة الكثير من الطبقات والمستويات في الأفكار حول السلوك البشري الطبيعي الموجود في نظرية الشخصية الحركية (الديناميكية) والمسماة نمط الشخصية.

وتقوم نظرية السلوك الإنساني هذه على أساس ستين سنة من الملاحظة والبحث. وقد بدأ عملنا مع النمط النفسي (السيكولوجي) في سنة 1978 وهو مستمر حتى هذا اليوم. وقد استخدمنا في مهنتنا سواء كنا مستشارين مهنيين أو معالجين فيزيائيين أو مديرين أو مدربين واختصاصيين في التنمية المؤسسية فيما بعد - استخدمنا النمط النفساني عندما كان ذلك ملائماً وذلك لمساعدة الأفراد على اتخاذ القرارات بخصوص مهنة المستقبل، وللعمل من خلال مواضيع النمو الشخصي كي نصبح مديرين أو أعضاء في مجموعات أكثر فعالية وكفاءة من ذي قبل. وقد درّبنا وعملنا ولمدة تزيد على العقدين مع آلاف الأفراد الذين توصلوا إلى فهم أنفسهم وإلى إجلال شعار «ما هو طبيعي» لديهم وذلك من خلال هذا النمط النفساني. وسوف

نطلعكم على المعارف التي نراها وقد برزت وتجسدت بواسطة البحث الدقيق (الذي لم يكن قصصياً أو قائماً على الخبرة البحتة لشخصية ما) والمُعينة والمفيدة للشخص العادي. ويزودنا شيء من التاريخ والخلفيات بإطار منهج لهذا المسعى.

كتب عالم النفس النمساوي كارل غوستاف يونغ (وكان أديباً وعالمياً في أصول الإنسان) كتابه المسمى (الأنماط النفسية). وقد أسسه على دراسته المستفيضة لكثير من مختلف أنواع الثقافات قديمها وحديثها. ومعظم الكتاب عبارة عن معالجة أنثروبولوجية في كيفية وصف السلوكات البشرية الطبيعية وتحديد أشكالها. وقد وصف كل الاتجاهات الرئيسية ووجهات النظر الثابتة حول الشخصية.

وقد قدّم (يونغ) التفسير المواكب لتلك الحقبة حول مسألتين أساسيتين: أولاً: كيف تتبنّى الكائنات البشرية العادية المعلومات وتعتنقها، وكيف يميّزون الأمور؟ وقد سمى هذا البُعد للشخصية (بالإدراك). ثانياً: كيف تأخذ الكائنات البشرية العادية القرارات وتصدر الأحكام حول الأمور؟ وقد سمى هذا البُعد للشخصية (بالتقييم وإصدار الأحكام). ويغلّف هذين السؤالين الجوهريين حول الوظيفة الفكرية بعدد ثالث يتناول قضية المصدر الذي يحصل منه الناس على الطاقة ويصرفونها.

وكان فريق من الأمهات والبنات في نفس الوقت تقريباً

يسأل نفس النوع من الأسئلة. كانت (كاثرين بريغز) و(إيزابيل بريغز) تدرسان وتؤلّفان حول السبب في أن أنواعاً من الناس تنجح أو تُخفق في وظائف مختلفة. وعندما قرأتا أعمال (يونغ) تبين لهما أنها تجسّد كل أفكارهما بل وأكثر من ذلك. وشرعتا عندئذ فيما أصبح شغل حياتهما كلها ألا وهو تقديم التطبيقات والتفاهات اليومية لنظرات (يونغ) الثابتة إلى عامّة الناس - إلى الناس العاديين. وقد شعرتا بأنه إذا أمكن تصميم أداة تساعد الناس على التعرف على أساليب ما يدركونه وما يحكمون به - أداة يتعرّفون بها كذلك على مصدر طاقتهم - فإن بُعد البصيرة المكتسب سيساعدنا على تقييم أنفسنا وتقييم الآخرين بشكل أكبر. وكانتا تأملان بأن الناس بهذه المعرفة سيفوزون بخبرات مهنية وتربوية أكثر نجاعة وإقناعاً، ناهيك عن قيام علائق محسّنة فيما بينهم. وقد أمضيتا العشرين سنة التالية واضعتين نصب أعينهما تطوير ما يُعرف الآن بـ(مؤشر مايرز - برنغز للأنماط) والخاص بـ(أنواع الشخصيات). ويُعرف اختصاراً الآن بـ MBTI إم. بي. تي. أي.

كانت وجهات نظرهما مبدعة ومجددة جداً بحيث أمكن لأعمالهما أن تُطلقا العنان لثلاثة عقود من الدراسة والتطبيقات في أمور الدين والإدارة والتعليم والاستشارة والعلاقات الإنسانية. ومنذ الكشف عنه سنة 1962 أصبح مؤشر (إم. بي. تي. أي) أوسع الأدوات النفسية استعمالاً في العالم. وقد تُرجم إلى أكثر

من ثلاثين لغة، ويأخذ اليوم أكثر من خمس ملايين نسمة وسطياً في كل سنة بهذا المؤشر للتطبيق على بيئة ما أو غيرها. وحسب معلوماتنا فإن نموذج (يونغ) في التمثل النفساني كما يجسده مؤشر (إم. بي. تي. آي) هو النظرية الوحيدة في علم النفس البشري التي تتأسس وتقوم على الشرائح العادية من الناس. وهو يؤكد على الاستخدام البناء للفوارق أكثر من تأكيده على تصنيف الفوارق وتحديدها على أساس أنها (جيدة - أفضل - الأفضل)، أو على أساس أنها ذات نتائج طبيعية أو غير طبيعية.

وفكرة (يونغ) التي تقدّرها عالياً أعمال (مايرز) و(بريغز) هي أن الأساليب المختلفة لتدفق الطاقة والحكم والإدراك هي على حالها - أي إنها مختلفة. فليس هناك فرد أفضل أو أسوأ من آخر في الأصل. قد لا يميل المجتمع ميلاً حسناً إلى جانب النموذج الذي يكون فيه الجميع من الفائزين، ولكن قناعتنا تقول إن هذا النموذج هو المفتاح إلى الملاحاة في بحر المستقبل. وهذا الإيمان الراسخ هو دافعنا للكتابة، لأنه إذا كنا لا نستطيع كأفراد وعائلات ومجموعات وجمعيات أن نتعلم أن نرى قيمة في الرؤى والمصادر المختلفة لدى الآخرين فإننا من الضائعين حتماً.

يمكنك وبحق أن تسأل هنا لماذا يتوجب عليك قراءة هذا الكتاب. أولاً: إننا نرى الناس كل الناس فيما حولنا يكافحون بهدف تقييم الفوارق بينهم. وهذا الكتاب في جوهره يدور حول الوسيلة التي يمكننا بها أن نتعرّف إلى الفوارق البشرية ونتفهمها

ونقيّمها بطرق بناءة ومنتجة. وكلما تحسّن فهمك لميولك الطبيعية ولكيفية تعبير هذه الميول عن نفسها من خلال سلوكك كلما أصبح من الأسر أن تتفهم تلك الأمور التي تعتبرها بديهية أو تفترض أنها صحيحة بالنسبة إليك كما هي بالنسبة إلى الآخرين - ما يسمى بالمناطق العمياء(*) (في الإدراك) والموجودة بين كل البشر.

ويمكنك هذا الفهم من الاهتمام بحاجات نموك الشخصية، وبذلك فهو يحزرك من الخوف المزعج، مثل قولك «ما الذي أضغته في هذه العملية». فمع هذا التفهم والتفاهم مع النمط سيتولد لديك تخمين عملي عما يوجد داخل المنطقة العمياء الخاصة بك، فستتمكن عندها من اتخاذ خطوات متقدمة وفعالة نحو التعويض. وإن ما تتعلّمه عن نفسك مهم كأهمية ما يمكنك أن تعرفه عن الآخرين. يمكنك أن تدرك النماذج والحركات الطبيعية نحو كل فرد؛ وبذلك تستطيع أن تقدّر تقديراً حقيقياً غنى الفوارق بين الأفراد.

ثانياً: نحن نؤمن إيماناً قاطعاً أنك ستجد في هذه الصفحات معلومات تساعدك وتعينك في كل منحى من مناحي الحياة - في العمل والحب وممارسة أبوتك وفي التعامل مع الآخرين. ولقد ضمّمنا في هذا الكتاب قصصاً شخصية عديدة

(*) المنطقة العمياء هي منطقة في إدراك المرء يعجز فيها عن الفهم أو التمييز.

أخذناها من عائلاتنا ومن عملنا ومن خبراتنا التطوعية؛ ونحن نشعر أنها ستوضح لك النقاط الهامة. نعم، هناك أسلوب قصصي ونوادر، ولكن يمكنك أن تنظر إليها من ضمن الروح التي قُدمت بها، وليس على أنها قصص الهرج والصبخ التي تقع مع أناس خاصين، بل على أنها حكايا تربوية لطيفة. ويمكنك أنت بدورك أن تبدأ بملاحظة وجود أحداث مماثلة في حياتك، بشرط أن تسعى على الإبقاء على «عدسات التَّمط» فوق عينيك. وسنكرر المرة تلو المرة أن التَّمط لا يفسر كل شيء في التفاعلات والسلوكات البشرية، بل هو أبعد ما يكون عن ذلك. ولكن للنمط صفة مهيمنة نجدها مع كثيرين آخرين صفةً أسرةً ومُعينة، وكثيراً ما تكون صفةً تغيير نحو الأفضل. ونأمل أن يساعدك عملنا أن ترى ذلك أيضاً.

هناك أمر أساسي أخير قبل الغوص في هذه الأمور الهامة. وبما أننا وبحسب ما هو واضح هنا قد تماشنا مع العموميات التي استقينها من مبدأ بحوثنا في بعض الكتب الأخرى، فإنك أيها القارئ وبحق سوف تتساءل عن طبيعة البحث الذي أسسنا عليه هذا العمل. يجب أن يكون الباحثون على ثقة من أن الناس الذين شاركونا في البحث هم أناس عاديون نلقاهم كل يوم وبانتظام. وكما تناقشنا في باكورة حديثنا فإن الإجابات على الأسئلة تتمحور حول الإنسان العادي، وليس من المفيد دراسة المرضى أو المراجعين في المؤسسات الصحية العقلية أو

الأشخاص الخاضعين لعلاج طويل الأمد. بعد هذا يمكننا أن نعمم النتائج على البقية منا. لذلك ومع افتراض أن العينة مجموعة تمثل الناس فإن على الباحثين بالتالي أن يكونوا على ثقة بأن المعلومات المستقاة والمحللة لها معنى صحيح. هل كان للمؤثرات الأخرى على السلوك تبرير أو تعليل؟ هل كانت أرضية الأبحاث خالية من التهديد أو غير متحيّزة؟ لقد توثقنا أن الأسئلة الفنية وكثير غيرها قد أُجيبَ عليها بما هو مناسب وذلك قبل أن نضم نتائج أي بحث من الأبحاث إلى عملنا.

قاعدة ومبدأ البحث

يأتي البحث الذي اعتمدناه هنا من دراسات أُجريت في جميع أنحاء الكرة الأرضية. وقد نظرنا في البحوث حول الأمور اليومية مثل الضغط والشدة وسلوكيات الإدارة والنمط النفسي (السيكولوجي). وقد استخدم كل جزء من البحث مؤشر (إم. بي. تي. أي) ومقاييس أخرى للسلوك. وعندما تبين لنا أن ما لا يقل عن ثلاث دراسات مختلفة قد أظهرت نفس الصفات حول النمط، عندها استخدمنا في الكمبيوتر مفاتيح (ديسكربرتر)^(*) ترويسية لكل موضوع مهم وشمّلنا ذلك في كتابنا.

(*) descriptor هو كلمة أو عنوان يرمّج في الكمبيوتر بحيث تنضوي تحته المواضيع المتماثلة المتفرعة عن موضوع أكبر، بحيث إذا أراد الشخص معرفة بند رئيسي معين في أمر عام مبرمج، فإنه يلجأ إلى هذه المفاتيح الترويسية لمعرفة ذلك.

وكلنا أمل أن فهم مصدر مادة بحثنا وكون ذلك مختلفاً عن الكثير من الكتب النفسية الرائجة وغيرها من الكتب حول النمط التفساني، كل ذلك سيساعدك في أن تكون مستهلكاً أكثر تمييزاً، مما سيعطيك الحرية في أن تستمتع بهذا العمل دون أن تخالجك الشكوك في مدى صلاحيته .

وإليك ما يمكنك أن تتطلع إلى أن تجده في الفصول المقبلة . فالفصل الأول يصف نماذج (يونغ) و(مايرز)، ويدرس الافتراضات النظرية حول النمط . ويتقصى الفصل الثاني الأفضليات المهمة للنمط وسلوكاته الحركية القائمة على غنى في المعلومات . ويستكشف الفصل الثالث الطبقات الأعمق لتفاعلات النمط، ويتأمل في كيفية أن بعض هذه التفاعلات تظهر من خلال سلوكات قد تُضلل المراقبين الهامشين للنمط . ويراجع الفصل الرابع موضوعاً خاصاً في النمط السيكلوجي وهو ما يسمى بالوظيفة الدنيا (أو العمل الوضيع) . يتفحص الفصل الخامس مواضيع توجيه وتطوير البالغين والتي يبرزها تطور النمط المرافق لنضوجه . يدرس الفصل السادس تداعيات النمط في دروب التواصل . أما موضوع تقييم الفوارق فقد تم دراسته في الفصل السابع مع شواهد مفصلة حول كيفية واحتمالات أن يمارس النمط التقييم وأن يعبر عنه . ويعرض الفصل الثامن لاستنتاجاتنا وتعليقاتنا حول التطور التالي للنمط السيكلوجي .

وعندما كُتِبَت الحاشية (أو الملحق) كانت أعيننا على الأشخاص الممارسين. ونحن نأمل أن تُبين وتوضح الأخلاقيات المتعلقة بإدخال مؤشر (إم. بي. تي. آي) وتفسيره. وإذا كنت تتعاقد على هذه الخدمات مع بائع خارجي، فإن هذا الفصل سيكون حاسماً بالنسبة إلى معالجتك لهذه المحاولات.

إذاً، من هو العادي والطبيعي، نحن كلنا كذلك بالمقياس الواسع. أمانة أن تجد في هذه الصفحات وجهة نظر نافذة تصل إلى داخل نفسك وإلى داخل الآخرين تزودك بالشجاعة كي تبتهج بكل معاني البهجة بالحالة السوية التي نتمتع بها جميعاً.

شكر وامتنان

إننا وبكل امتنان نعترف بدعم وتشجيع أزواجنا (آنجيلا) و(توم). فقد شاركنا متعتنا وإحباطنا حول عملية تنقية العواطف وتحويلها إلى أفكار وإلى مادة للبحث، وفي الحلقات الدراسية المتطورة، وفي تأليف هذا الكتاب. كذلك فإننا نعبر عن شكرنا إلى (إليزابيث كوترل) لمشاركتنا فيما وهبها الله من عيون وقلب وعقل كانت تنتقد بها هذه المخطوطة. ونحن مدينون بالقيام بالدراسات الأساسية إلى (إيزابيل مايرز) و(ماري ماكوللي)، ونشعر أن توسعهما في عملهما كان شرفاً لنا. ولم نتمكن من وضع قائمة بمئات الأفراد الذين منحونا وجهات نظرهم الثاقبة وسمحوا لنا باستخدام ردود أفعالهم تجاه مادة بحثنا: ونحن

نقدّر إسهاماتهم. أخيراً وليس آخراً، نحن فخورون ومقدّرون لإدارة (ديفيس - بلاك للنشر) لمجهوداتها في إظهار هذا العمل إلى حيّز الوجود من أجل ومصلحة عامة الجماهير.